الباب الأول

أنواع التمكين في القرآن الكريم

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: تبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

الفصل الثاني: هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين ونصرهم في المعارك.

الفصل الثالث: في المشاركة في الحكم.

الفصل الرابع: إقامة الدولة.

أنواع التمكين في القرآن الكريم

تمهيد:

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51].

وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47].

وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: 7].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: 171 ـ 173].

إن هذه الآيات وأمثالها تشير إلى نصر الله، وإعزاز أهل الإيمان ممن يحرصون على الدعوة، ويتحملون المشاق في سبيلها سواء كان الداعية رسولاً كريماً أو أحد المؤمنين، وهذا الإعزاز والانتصار والتمكين يكون في الحياة الدنيا قبل الآخرة.

ونجد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، أن من الأنبياء من قتله أهل الكفر والشرك، كيحيى وزكريا ـ عليهما السلام ـ وغيرهم، ومنهم من حاول قومه قتله إلاّ أن الله نجاه منهم كنبينا محمد ﷺ وعيسى ابن مريم عليه السلام، وكإبراهيم الذي ترك قومه وعشيرته مهاجراً إلى الشام. ونجد من أهل الإيمان على مر العصور ومر الدهور من يسام سوء العذاب، وفيهم من يلقى في أخاديد الأرض ملأى بالنيران المحرقة، ومنهم من يقتل في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، ومنهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد، فأين وعد الله لهم بالنصر والظفر والتمكين وقد طردوا أو قتلوا أو عذبوا؟[1].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله: «ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل، ويفعل بها الأفاعيل: إن الناس يقيسون بظواهر الأمور، ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير.

---

(1) انظر: حقيقة الانتصار للدكتور ناصر العمر (ص 13، 14).

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان وهي مقاييس بشرية صغيرة. فأما المقياس الشامل، فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر، ولا بين مكان ومكان. ولو نظرنا إلى قضية الإيمان والاعتقاد لرأيناها تنتصر من غير شك. وانتصار قضية الإيمان هو انتصار أصحابها، فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها. وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها.

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صورة معينة معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم. ولكن صور النصر شتى، وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة... إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته، ولا عن الدعوة إليها... أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك ـ في منطق العقيدة ـ أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار. هذه صورة، وتلك صورة، وهما في الظاهر بعيد من بعيد. فأما في الحقيقة قريب من قريب»[1].

«وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام؛ كما نصرها باستشهاده. وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد، وربما كانت حافزاً محركاً لخطى التاريخ كله مدى أجيال»[2].

«إن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة: ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة. لقد انتصر محمد ﷺ في حياته؛ لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض؛ فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعاً، من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة. فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته؛ ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعية تاريخية محدودة مشهودة. ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية وفق تقدير الله وترتيبه»[3].

إن النصر والتمكين للمؤمنين له وجوه عدة، وصور متنوعة من أهمها: تبليغ الرسالة، وهزيمة الأعداء، وإقامة الدولة.

---

(1) انظر: الظلال (5/ 3086).

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

الفصل الأول

تبليغ الرسالة وأداء الأمانة

إن من أنواع التمكين التي ذكرت في القرآن الكريم تمكين الله تعالى للدعاة، بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، واستجابة الخلق لهم، وقد أشار القرآن إلى عدة نماذج، من ذلك:

المبحث الأول

أصحاب القرية

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [يس: 13 ـ 18]

إن أهل هذه القرية لم يستجيبوا لدعوة المرسلين، ومضوا في كفرهم وعنادهم غير مبالين، وهددوا المرسلين بالرجم والعذاب الأليم، والمتأمل في الآيات القرآنية تظهر له بعض معاني النصر والتمكين التي حققها المرسلون، وبذلك يكونون قد نصروا نصراً مؤزراً، وأن أصحاب القرية هم الخاسرون. إن معاني النصر ظهرت في الحقائق التالية:

1 ـ تمكين الله تعالى للمرسلين بحيث استطاعوا تبليغ رسالته، ولم يستسلموا لشبهة أهل

القرية أولاً، وتهديدهم ثانياً، وهذه هي مهمتهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يسّ: 17] ومن أدى ما عليه فقد انتصر وفاز ونجح.

2 ـ إن استجابة رجل من أهل القرية لهم، وتأييده لدعوة التوحيد علانية يعد نصراً وانتصاراً له ولهم؛ ولذلك كان ردّ أهل القرية عنيفاً تجاهه؛ لأنهم شعروا بخذلانه لهم، وخذلانهم نصر لأولئك الرسل.

3 ـ إن استشهاد الرجل الذي جاء من أقصى المدينة نصر له ولدعوة التوحيد، حيث استطاع أن يودع في قلوب الناس من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي كتبها بدمه، فأصبحت حافزاً محركاً لأهل الإيمان على مر الدهور وكر العصور منذ نزول القرآن الكريم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. إن قتله في سبيل دعوة التوحيد كان سبباً في فوزه الأبدي بدخول الجنة ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [يسّ: 26].

لقد تمكن التوحيد في قلبه فجعله حريصاً على هداية قومه، فلم يحمل حقداً ولا ضغينة مع تعذيب قومه له وقتله، وهذا انتصار عظيم على النفس البشرية: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يسّ: 26 ـ 27].

إن وصول دعوة التوحيد إلى أقصى المدينة دليل على المجهود العظيم الذي بذله المرسلون، كما تدل على المعاني العظيمة من الصدق والإخلاص التي تمكنت في نفوسهم من أجل دعوة التوحيد.

4 ـ إن انتصارات هؤلاء الرسل وهذا الداعية الذي جاء من أقصى المدينة توّجت بهلاك القوم الذين كذبوا بدعوة المرسلين ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يسّ: 28 ـ 29].

إن الدعاة إلى الله في أمس الحاجة إلى أن يقفوا مع قصة أصحاب القرية، ويتأملوا ويتفكروا في أبعادها ونهاياتها. إنني أريد أن أقف مع الرجل المؤمن الذي تمكن الإيمان في قلبه؛ ماذا فعل في نفسه ذلك الإيمان العظيم؛ لقد وفق سيد قطب رحمه الله في تحليل نفسية هذا النموذج الطيب والرجل المؤمن المستجيب لدعوة الرسل، فحلّل نفسيته الخيرة فقال: «إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة، فيها الصدق والبساطة، والحرارة، واستقامة الإدراك، وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين.

فهذا الرجل سمع الدعوة، واستجاب لها بعدما رأى فيها دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه، وحينما استشعر حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتاً. ولم يقبع في داره بعقيدته، وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور، ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره. سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهدّدون.

وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفّهم عن البغي وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين.

والظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان، ولم يكن في عزة من قومه، أو منعة من عشيرته، ولكنها العقيدة الحيّة في ضميره، تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها»[1].

ولقد أجاد الإمام الفخر الرازي[2] في الإشارة إلى بعض المعاني العظيمة التي تشير إلى تمكن دعوة التوحيد في قلب الرجل المؤمن، الصادق المخلص، وأنقل إليك بعض هذه المعاني:

1 ـ إن في ارتباط الرجل المؤمن مع ما سبق من آيات القصّة وجهان:

أحدهما: أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين، حيث آمن بهم الرجل الساعي، وعلى هذا ففي قوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ بلاغة باهرة، فهو يدل على أن إنذار الرسل قد بلغ إلى أقصى المدينة.

الثاني: أن ذكر قصة الرجل المؤمن بالمرسلين تسلية لقلوب أصحاب الرسول ﷺ وتثبيت لهم على الدعوة، كما كان ذكر الرسل الثلاثة تسلية لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام.

2 ـ في تنكير ﴿رَجُلٌ﴾ فائدتان وحكمتان:

الأولى: أن يكون تعظيماً لشأنه، أي رجل كامل في الرجولية.

الثانية: أن يكون مفيداً لظهور الحق من جانب المرسلين، حيث آمن رجل من الرجال لامعرفة لهم به، فلا يقال: إنهم تواطأوا.

---

(1) الظلال: (5/ 2962 ـ 2963).

(2) هو العالم الأصولي المفسر فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، اشتهر بعلم الأصول والنحو والشعر والوعظ، وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي، وكان كثير البكاء، توفي عام 606 هـ. انظر: الوفيات (4/ 248)

3 ـ في قوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ تبصير للمؤمنين وهداية لهم، ليكونوا في النصح باذلين جهدهم، ساعين فيه، مقتدين بالرجل الذي جاء يسعى.

4 ـ في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ معنى لطيف: حيث يشير إلى إشفاقه عليهم، وإضافتهم إليه دليل على أنه لايريد بهم إلا خيراً.

5 ـ في قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دعوة منه لهم إلى اتباع المرسلين، ولم يقل: «اتبعوني» كما دعا مؤمن آل فرعون في سورة غافر؛ وذلك لأنه جاء من أقصى المدينة، ولم يكن معهم ولا بينهم، فدعا إلى اتباع المرسلين الذين أظهروا لهم الدليل، وأوضحوا لهم السبيل.

6 ـ جمع في قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بين إظهار النصيحة في قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ وإظهار الإيمان في قوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقدّم النصيحة على الإيمان لكونه أبلغ في النصح.

7 ـ في قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ معنى حسن لطيف، واستخدام لأحسن الأساليب في النقاش والجدال والإقناع، حيث نزل فيه درجة لإقناعهم. وكأنه يقول لهم: افترضوا أنهم ليسوا مرسلين ولا هداة، ولكنهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة التي توصلهم إلى الحق. ثم هم لا يسألونكم أجراً ولا مالاً. وهذا الأمر يدعوكم إلى اتباعهم والاستجابة لهم.

8 ـ في قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استفهام إنكاري، وفيه إشارة إلى أن الأمر من جهة عبادة الله وحده لا خفاء فيه، وعلى الذي لا يعبده أن يقدّم السبب الذي يمنعه من عبادته، أما أنا فلا أجد مانعاً يمنعني من عبادته.

9 ـ وفي قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ لطيفة أخرى، حيث عدل عن مخاطبة القوم إلى الحديث عن نفسه، والحكمة في ذلك هي أنه لا يخفى عليه حال نفسه، ولذلك فهو لا يطلب العلة والدليل من أحد آخر؛ لأنه أعلم بحال نفسه.

10 ـ جمع في قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ بين أمرين في إيمانه بالله:
الأول: هو عدم المانع الذي يمنعه من الإيمان في قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ﴾.
والثاني: هو قيام المقتضى الذي يدعوه إلى الإيمان، وهو في قوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، فالله الخالق مالك ومنعم، وعلى العبيد عبادته وشكره.

11 ـ قدّم عدم المانع من الإيمان على المقتضى الذي يدعوه للإيمان في قوله تعالى:

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ولم يقل: (فطركم)؛ لأنه هو الأهم من المقصود من السياق.

12 ـ قال: ﴿فَطَرَنِى﴾ ولم يقل: (فطركم) لأنه يتحدث عن نفسه وليس عنهم ولتناسقه مع قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ﴾، حيث أسند العبادة إلى نفسه؛ فناسب أن يسند الفطرة إلى نفسه.

13 ـ يتضمن قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الخوف والرجاء في عبادة الله، فمن يكون إليه المرجع والمآب، يخاف منه ويرجى.

14 ـ هناك حكمة لطيفة من الالتفات إليهم في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ليبين الفرق بينه وبينهم من الرجوع إلى الله، فرجوعه هو إلى الله ليس كرجوعهم هم.

رجوعه هو إلى الله رجوع العابد المؤمن بالله، ولهذا كان رجوعه للإكرام والإنعام، أما رجوعهم هم، فهو رجوع الكافر العاصي، ليحاسب ويعاقب ويعذب فرجوعهم للعذاب والإهانة وشتان بين رجوعين.

15 ـ في قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إشارة إلى كمال التوحيد، فقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ إشارة إلى وجود الله وفي قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إشارة إلى نفي الشرك به وعدم عبادة غيره.

16 ـ في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إشارة لطيفة. فالدونية هنا مقصودة فبما أنه ثبت أن الله وحده هو الخالق المعبود، فكل غير الله هم ﴿دُونِهِۦٓ﴾ وهؤلاء جميعاً مشتركون في كونهم مخلوقين ضعفاء، محتاجين إلى الله، مفتقرين إليه، ولذلك يجب أن يكونوا جميعاً عابدين له. وبما أنهم كلهم ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، شركاء في الدونية، فكيف يكون من بينهم آلهة؟

17 ـ في قوله: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ يخاطب الجميع، سواء كانوا من المرسلين أو من أهل القرية، لكنه أول ما يتوجه إلى أهل القرية، حيث يثبت لهم أن الله وحده ربهم.

18 ـ في قوله: ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ ما يدل على أنه كان متروٍّ مفكر، فإن المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعة سامعين، فإنه يتفكر فيه، كما أنه يقصد أن يسمعهم ليقيم الحجة عليهم، وكأنه يقول لهم: إني أخبرتكم بما فعلت، حتى لا تقولوا: لم أخفيت عنا أمرك، ولو أظهرت أمرك لاتبعناك؟!

19 ـ المراد بالسماع في قوله: ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ ليس مجرد سماع الصوت، بل قبول الدعوة، والاستجابة لصوت الحق والدخول في الإيمان[1].

إن هذه المنهجية الفريدة مع صدق الدعوة وإخلاص التوجه، والحرص على الهداية، وظهور الشجاعة، وترتيب الأفكار، وقوة المنطق ترجع إلى تمكن الإيمان الحقيقي في قلب ذلك الرجل الرباني، كما أن المرسلين الذين استطاعوا أن يضموا إلى موكب الإيمان وقافلة الدعوة؛ مثل هذا الرجل المخلص لدليل على نصر الله لهم وتمكين دعوتهم وظهور حجتهم.

إن دعوة الله يستجيب لها من اتصف بصفة الرجولة وهناك فرق بين الرجولة والذكورة، فإن الذكورة تقابل الأنوثة، فالزوجان هما الذكر والأنثى. والذكورة صفة جسدية بدنية ليس إلا. لكن الرجولة تشير إلى الشدة والقوة والتحمل والشجاعة والثبات، فهي تشير إلى صفات نفسية، ومزايا معنوية، وفضائل أخلاقية.

ولعله لأجل هذا وردت صفة الرجولة في مقام مدح وثناء وإشارة؛ قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ ...﴾ [القصص: 20].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: 20].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: 28].

وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23].

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: 36 ـ 37].

وقال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: 108]

«إن خطوة ذلك الرجل المؤمن تعتبر موقفاً إيمانياً عظيماً، وتدل على أن الحياة فعلاً مواقف، وأن الرجال بمواقفهم لا بأعمارهم، لقد آمن في وقت المحنة والشدة والابتلاء، واتبع المرسلين وهم مستضعفون، وتحدّى بذلك القوة المادية الغاشمة، وأعلن عن إيمانه وطلب أن يسمعوه، مع أنه يرى الخطر أمامه، ويتوقع أن يناله الأذى والمكروه، وقد يؤدي موقفه إلى إزهاق روحه، ومع ذلك آمن وأعلن إيمانه، واستعد لتحمل نتيجة موقفه»[2].

---

(1) انظر: تفسير الرازي (26/ 54 ـ 60) مع التصرف.

(2) انظر: مع قصص السابقين للخالدي (7/256).

إن الذين يسعون لتمكين شرع الله في دنيا الناس؛ عليهم أن يتصفوا بصفات الرجولة ويحرصوا على ضم من تظهر فيهم هذه الصفات الجميلة إلى صفوفهم.

إن ذلك الرجل الرباني أصبح نبراساً ومعلماً بارزاً على طريق الدعوة، يقتدي به الدعاة في انحيازهم إلى جانب الحق والتزامه والدعوة إليه. ولسان حال أحدهم يقول للآخرين: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾.

إن انتصار منهج الله والتمكين له وتعرف الناس عليه، يحتاج إلى رجال يرفعون أصواتهم حتى يسمع الآخرون.

إن جمال الحياة ورونقها البهي وحلاوتها النضرة تكون بنصرة الحق ودك الباطل في حصونه.

وإن المواقف الإيمانية ابتغاء مرضاة الله رفعة للداعية في الدنيا والآخرة.

إن أصحاب المواقف الإيمانية هم دائماً الرابحون، فعندما يدفع الإنسان المؤمن حياته وعمره ودنياه، وهو هبة ومنحة وعطية وفضل من الله مقابل الجنة والنعيم الدائم والخلود الأبدي يكون قد ربح ربحاً وفيراً، وفاز فوزاً عظيماً.

إن أهل الإيمان يكظمون غيظهم، ويحلمون على الجهلة، ويصبرون على دعوة الأشرار، وأهل البغي، ويسعون في تخليصهم، ويبتعدون عن الشماتة بالأعداء. ألا ترى كيف تمنى الرجل الرباني الخير لقتلته، والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام[1].

إن دخول الجنة مع الشهادة في سبيل الله نوع من التمكين، واستئصال أهل الشرك الذين عاندوا الدعاة نوع من النصر لأولياء الله.

---

(1) انظر: مع قصص السابقين للخالدي (7/ 260).

المبحث الثاني

أصحاب الأخدود

إن قصة الغلام مع الملك الكافر من أوضح القصص في تمكين الله تعالى للدعاة في تبليغ رسالتهم وأداء أمانتهم.

قال رسول الله ﷺ: «**كان فيمن كان قبلكم ملك وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبر سني، وحضر أجلي، فادفع إلي غلاماً لأعلمه السحر، فدفع إليه غلاماً يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؛ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحبّ إلى الله أم أمر الساحر، قال: فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت أفضل مني وستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي. فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم بإذن الله، وكان للملك جليس فعمي، فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني، فقال: ما أنا أشفي أحداً، إنما يشفي الله ﷻ ـ فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان، من ردّ عليك بصرك؛ فقال: ربي. فقال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله، قال: أَوَلك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دلّه على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بني، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء؛ قال: ما أشفي أحداً، إنما يشفي الله ـ ﷻ ـ قال: أنا؟ قال: لا. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه ـ أيضاً ـ بالعذاب فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب، فأتى الراهب، فقال: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه**

فشقه به حتى وقع شقاه إلى الأرض، وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به، فلما علوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا. وجاء الغلام يمشي حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؛ فقال: كفانيهم الله ـ تعالى ـ فبعث به مع نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور في البحر، فقال: إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرّقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعين، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؛ فقال: كفانيهم الله ـ تعالى ـ ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؛ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي، ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه، ثم رماه، وقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام.

فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؛ فقد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدّت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنما تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أمّاه فإنك على الحق»[1].

لقد انتصر الغلام بعقيدته على الملك الكافر، وتمكن منهجه الرباني في نفوس رعايا الملك المشرك الغادر وثبتوا على عقيدتهم وضحوا بأنفسهم من أجل إيمانهم، وعلموا البشرية معنى من معاني الانتصار.

قال سيد ـ رحمه الله ـ: «في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية، في نفوس الفئة الخيِّرة الكريمة الثابتة المستعلية، لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان.

في حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة.

ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئاً آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى.

---

(1) مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب أصحاب الأخدود (3/ 2299) رقم 3005.

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام ومن متاع وحرمان، ليست هي القيمة الكبرى في الميزان، وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة، والنصر ليس مقصوراً على الغلبة الظاهرة، فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة.

إن الناس جميعاً يموتون، وتختلف الأسباب، ولكن الناس لا ينتصرون ـ جميعاً ـ هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق، إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده، تشارك الناس في الموت، وتنفرد ـ دون كثير من الناس ـ في المجد، المجد في الملأ الأعلى، وفي دنيا الناس ـ أيضاً ـ إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال. لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم يخسرون أنفسهم، وكم كانت البشرية كلها تخسر، كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح، بعد سيطرتهم على الأجساد.

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: 8]. حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله، في كل أرض، وفي كل جيل.

إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة، وليست شيئاً آخر على الإطلاق، وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان، ولايسخطون منهم إلا العقيدة.»[1].

إن المتأمل في قصة الغلام يجد أن الغلام انتصر بعقيدته ومنهجه وكذلك الراهب الذي ثبت من أجل أن تبقى عقيدته في مقابل أن تزهق روحه، أما الأعمى فقد انتصر مرتين، انتصر عندما تخلى عن مكانته عند الملك مع ما في ذلك من جاه ومكانة، وانتصر عندما تخلى عن حياته في مقابل عقيدته.

إن الراهب والأعمى قد خلَّدا لنا معاني عظيمة من معاني الانتصار الحقيقي، بعيداً عن التأويل والتبرير الذي يغطي فيه كثير من الناس ضعفهم وخورهم بستار يوهمون فيه الآخرين أنهم فعلوا ذلك من أجل الدين.

لقد كان الغلام ذكياً ألمعياً، وحين سنحت له فرصة عظيمة في تبليغ رسالة ربه، اغتنمها وحقق معاني عظيمة في مفهوم النصر والتمكين.

---

(1) انظر: معالم في الطريق، فصل: هذا هو الطريق، ص 173.

لقد انتصر الغلام بقوة فهمه وإدراكه لأقصر وأسلم الطرق لنصرة دينه وعقيدته، وإخراج أمته من الضلال إلى الهدى ومن الكفر إلى الإيمان. وانتصر عندما وفق لاتخاذ القرار الحاسم في الوقت المناسب، متخطياً جميع العقبات، ومستعلياً على الشهوات وحظوظ النفس ومتاع الحياة الدنيا، وانتصر على هذا الملك المتجبر المتغطرس، الذي أعمى الله قلبه، فأخرب ملكه بيده، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

إن الغلام كان عبقرياً عندما خطط لإهلاك الملك الكافر وعندما رسم طريقه لنيل الشهادة في سبيل الله.

لقد كان الانتصار العظيم في المعركة بين الكفر والإيمان لمصلحة موكب التوحيد، لقد استشهد فرد وحَيَت بسببه أمة فآمنت برب الغلام.

إن دقة التخطيط وبراعة التنفيذ، وسلامة التقدير، نجاح باهر، وفوز ظاهر.

لقد انتصر الغلام عندما جعله الله قدوة لمن بعده، وأبقى له ذكراً حسناً على لسان المؤمنين، حيث جعل الله له لسان صدق في الآخرين. لقد كانت انتصارات متلاحقة ووصلت إلى ذروتها عندما آمن الناس برب الغلام، آمنوا بالله وحده وكفروا بالطاغوت. وهنالك جن جنون الملك، وفقد صوابه، فاستخدم كل ما يملك من وسائل الإرهاب والتخويف، في محاولة يائسة للإبقاء على هيبته وسلطانه وتعبيد الناس له، ثم حفر أخاديده، وأوقد نيرانه، وأسر زبانيته وجنوده بإلقاء المؤمنين في النار، وأتت المفاجأة المذهلة، بدل أن يضعف من يضعف، ويهرب من يهرب إذا بنا نجد الإقدام والشجاعة، وذلك بالتدافع إلى النار. ولا غريب في ذلك؛ لأن الإيمان بث في نفوسهم الشجاعة، والثبات، وهاهم يجدّون في اللحاق بالغلام، وكأنهم يتلذذون في تقديم أرواحهم فداء لعقيدتهم ودينهم.

إن الإيمان الحقيقي يصنع بالأمم الغرائب ويبدد الظلام الطويل الذي عاشوه، والسنوات المديدة التي استعبدهم فيها الطغاة، ومع قصر المدة التي قد يأتي فيها الإيمان إلى النفوس إلا أنه كفيل بتعريف الناس بحقيقة المنهج الرباني، كما نرى في هذه الأمة السعيدة التي آمنت برب الغلام. وكأنهم عرفوا المنهج وعاشوا فيه كما عاش الراهب طول عمره، أو تربوا عليه كما تربى الغلام في صباه.

إن حقيقة الإيمان عندما تخالط بشاشة القلوب، وتلامس الأرواح تفعل العجب.

لقد كان انتصار الناس الذين آمنوا برب الغلام انتصاراً جماعياً مباركاً؛ يدل على صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وسلامة الطريق، وفهم لحقيقة الانتصار.

إننا لا نجد في القرآن ولا في السنة أي ذكر لهؤلاء الظلمة، وماذا كان مصيرهم في الدنيا، ولله في ذلك حكمة قد تخفي علينا[1]؛ نعم وردت آية في آخر قصتهم فيها دعوة لهم وتحذير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: 10].

قال الحسن البصري[2]: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»[3].

إن هذه النهاية تحقق معنى من معاني الانتصار، من المنتصر؟ الذي نصر عقيدته ودين ربه، وحُرِّق بضع دقائق، ثم انتقل إلى جنات النعيم، أم ذلك الذي تمتع بأيام في الحياة الدنيا ثم مآله - إن لم يتب - إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق؟

هل هناك مقابلة بين الحريق الأول، والحريق الثاني، حريق الدنيا وحريق الآخرة؟

إنها نقلة بعيدة، وبون شاسع، أما المؤمنون الذي حُرِّقوا في الدنيا، ف ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البروج: 11]. وتعلن النتيجة التي لا مراء فيها ولا جدال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج: 11] أليس هذا هو الانتصار[4]، هذا في الآخرة، وفي الدنيا تمكن المنهج من قلوب الناس وتمَّ ظهوره.

---

(1) انظر: حقيقة الانتصار، ص 13، 14.

(2) هو سيد التابعين الحسن بن أبي الحسن يسار البصري الأنصاري مولاهم، زاهد فاضل ثقة، كان من أفصح الناس وأجملهم، توفي 110 هـ وهو ابن 88. تهذيب التهذيب (2/ 263 - 270).

(3) تفسير ابن كثير (4/ 496).

(4) انظر: حقيقة الانتصار، ص 55.

المبحث الثالث

تمكين الله تعالى لرسول الله ﷺ لتبليغ الرسالة في مكة

بعد الإعداد الرفيع الذي قام به النبيّ ﷺ لتربية أصحابه وبناء القاعدة الصلبة على أسس عقدية وخلقية وأمنية وتنظيمية، وبعد أن قطع المرحلة السرية بكل نجاح وتفوق، نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]. فخرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «**يا صباحاه**»، فاجتمعت إليه قريش، فقال: «**يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟**» قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» فقال أبو لهب: تباً لك، أما جمعتنا إلا لهذا؛ ثم قام فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1].

من الطبيعي أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لابد أن يكون له أثر خاص؛ لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجلبها إلى حظيرة الإسلام لابدّ وأن يكون له وقع كبير على بقية القبائل. على أن هذا لا يعني أن رسالة الإسلام كانت في أدوارها الأولى محدودة بقريش؛ لأن الإسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية[1].

ولقد كانت النتيجة المباشرة لهذا الصدع هي الصد والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب، والكيد المدبر المدروس، ولقد اشتد الصراع بين النبيّ ﷺ وأصحابه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، وأصبح الناس في مكة يتناقلون أخبار ذلك الصراع في كل مكان ـ وهذا في حد ذاته مكسب عظيم للدعوة، ساهم فيه أشد وألد أعدائها، ممن كانوا يشيعون في القبائل قالة السوء عنها، فليس كل الناس يسلمون بدعاوى القرشيين، بل كان يوجد من مختلف

---

(1) دراسة في السيرة النبوية، للدكتور عماد الدين خليل، ص 124، 125.

القبائل من يتابع الأخبار، ويتحرى الصواب، فيظفر به. وكانت الوسيلة الإعلامية في ذلك العصر تناقل الناس للأخبار مشافهة وسمع القاصي والداني بنبوة الرسول ﷺ، وأصبح هذا الحدث العظيم حديث الناس في كل مكان، وبدأ رسول الله ﷺ يشق طريقه لكسر الحصار المفروض على الدعوة، والانتقال بها إلى مواقع جديدة. وسنرى ذلك في عرضه للدعوة على القبائل، والخروج للطائف، وهجرة الحبشة.

لقد كان أولى الناس بتوجيه الدعوة إليهم: قريش وأهل مكة ـ وبالأخص عشيرة النبيّ ﷺ الأقربين ـ فوجه إليهم الدعوة من خلال هذا المنبر العلني، وأنذرهم عذاب الله وبأسه إن لم يؤمنوا[1].

ولكن قريشاً رفضت الاستجابة والانقياد للحق المبين، وكان موقفهم كموقف الأقوام السابقة من رسلهم، فحاربوا الدعوة الجديدة التي عرّت واقعهم الجاهلي وعابت آلهتهم وسفهت أحلامهم ـ أي آراءهم وأفكارهم وتصوراتهم عن الحياة والإنسان والكون ـ فاتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدعوة وإسكات صوتها أو تحجيمها وتحديد مجال انتشارها.

لقد فكر النبيّ ﷺ في الخروج بالدعوة من مكة لتحقيق أمور من أهمها:

1 ـ البحث عن موطن يأمن فيه المسلمون على دينهم، ويسلمون من أذى قريش وفتنتها، حيث لا تطولهم يدها، ولا يمتد إليهم بطشها.

2 ـ البحث عن بيئة تقبل الدعوة، وتستجيب لها، في مقابل عنت القرشيين وكفورهم، ومن هذه البيئة تنطلق إلى آفاق الأرض؛ تحقيقاً لأمر الله بالتبليغ للعالمين[2].

فكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة، فكانت الأولى في شهر رجب سنة خمس من المبعث، وهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة خرجوا مشاة إلى البحر فاستأجروا سفينة.

وقد صورت أم سلمة، زوج النبيّ ﷺ ـ وهي ممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى ـ الظروف التي أحاطت بهذه الهجرة فقالت: لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال

(1) انظر: الغرباء الأولون لسلمان العودة، ص 167.
(2) المصدر السابق، ص 168.

أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه**»، فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمِنَّا على ديننا، ولم نخش منه ظلماً[1].

لقد كانت هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة ذات أبعاد سياسية، وإعلامية، ودعوية، وكان اختيار النبيّ ﷺ للحبشة في غاية الدقة وبعد النظر؛ لأنه التفت ﷺ إلى ما يحيط به من الداخل والخارج، وما ينتظر دعوته من أخطار، فوجد أن جذورها قد امتدت في أعماق الجزيرة العربية، بين مؤمن قوي الإيمان، وبين كافر معاند شديد الحرص على زعامتها، عظيم الحقد على الدعوة وصاحبها.

وأما خارج الجزيرة، فتوجد إمبراطورية فارس، وقد أعماها دخان النار، وإمبراطورية الروم وقد عبدوا الملوك ودنياهم. أما الحبشة فما يزال بها بعض وميض من صدق رسالة عيسى عليه الصلاة والسلام، وأن بها ملكاً لا يظلم أحد بأرضه[2]. وهذا يدل على اهتمام رسول الله ﷺ بما يدور حوله ومعرفة الدول وطبائعها.

ولقد كانت الهجرة وسيلة من أهم وسائل الإعلام في الإسلام؛ لأنه بمجرد خروج المسلمين من بلد كانوا فيه منذ النشأة، يخلق تساؤلاً كبيراً في المجتمع الملآن بالكذب والأراجيف والمتخصص في تشويه أخبار الدين الجديد، وخرجوا وقد تركوا تساؤلاً في أذهان الناس ما الذي حملهم على ترك أوطانهم وأموالهم وأهليهم إنه لأمر عظيم.

لقد خرج الوفد الإعلامي الإسلامي الأول للحبشة بخطة محكمة، وتدبير مقصود لنشر الدعوة الإسلامية، وإعلانها في كل مكان حيث إن الرسول ﷺ أرسل كتاباً للنجاشي يشير فيه إلى البر بالمسلمين ويدعوه فيه إلى الإسلام[3].

وهكذا ترى أن اختيار الزمن والمكان لم يكن لمجرد الصدفة والهروب من شدة العذاب فقط، بل كان بعضهم في حماية قبيلة يستطيع البقاء في مكة دون إيذاء مهلك[4].

وكان الوفد الإعلامي الأول أشبه بسفارة في أيامنا الحاضرة؛ لكنها تحمل شعار لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، وتعمل جاهدة على نشره. لقد كان الهدف الأول من هجرة المسلمين

---

(1) ابن هشام (1/ 334)

(2) انظر: الوفود الإعلامية في العصر المكي لعلي الأسطل، ص 111.

(3) المصدر نفسه، ص 114.

(4) المصدر نفسه، ص 115.

إلى الحبشة حماية المستضعفين من أذى قريش، ودفع غربتهم المعنوية، وتأمينهم على دينهم، وفتح آفاق جديدة للدعوة إلى الله يشرف عليها المهاجرون، والحط من مكانة قريش عند سائر العرب، وإدانة موقفهم من الدعوة وحملتها، يجعل الأحباش يسبقون قريشاً ويؤوون من طردتهم، وأساءت إليهم من أشراف الناس، ومن ضعفائهم وغربائهم وهذه كلها آثار إيجابية، لا يضير أن يوجد إلى جوارها آثار سلبية قليلة، منها: أن إيواء الحبشة للمسلمين وطيب مقامهم بها أذكى نار الحقد لدى قريش، فضاعفت من حربها ومكرها، وعداوتها[1].

وعندما تسامع المهاجرون بأن قريشاً قد أسلمت، وكفت عن إيذاء النبيّ ﷺ فرجعوا، فوجدوا الأمر أشد مما كان.

فأذن النبيّ ﷺ بالهجرة الثانية، فهاجر قرابة المائة مابين رجل وامرأة واستقروا هناك[2].

لقد ذكر ابن إسحاق[3] دوافع الهجرة الثانية فقال: (فلما اشتد البلاء وعظمت الفتنة تواثبوا على أصحاب رسول الله ﷺ وكانت الفتنة الآخرة التي أخرجت من كان هاجر من المسلمين بعد الذين كانوا خرجوا قبلهم إلى أرض الحبشة)[4].

لقد أرسلت قريش عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة يحملان الهدايا إلى النجاشي وبطارقته فقابلا النجاشي طالبين إليه إعادة من هاجر من المسلمين، فأرسل النجاشي إلى المسلمين فسألهم عن دينهم فقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: «أيها الملك، كنا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم، بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لانحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي ونصوم، ولا نعبد غيره».

فقال: هل معك شيء مما جاء به؛ وقد دعا أساقفة فأمرهم فنشروا المصاحف حوله.

فقال جعفر: نعم.

قال: هلم فاتلُ عليَّ ماجاء به.

---

(1) انظر: الغرباء الأولون، ص 171

(2) المصدر نفسه، ص 169.

(3) هو محمد بن إسحاق بن يسار من كتّاب السيرة. انظر سير أعلام النبلاء (7/ 34).

(4) المغازي والسير لابن إسحاق، ص 213، تحقيق سهيل زكار.

فقرأ عليهم صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها عيسى، انطلقوا راشدين.

ولما أخفقت محاولة وفد قريش في استعادتهم، أثار عمرو بن العاص في اليوم التالي موقف المسلمين من عيسى عليه السلام، فقال للنجاشي: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل النجاشي إليهم فسألهم، فقال له جعفر: نقول هو عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فقال النجاشي: ماعدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود، وأعطى النجاشي الأمان للمسلمين، فأقاموا مع خير جار في خير دار كما تقول أم سلمة رضي الله عنها[1].

إن مسارعة قريش لإرسال وفد لاستعادة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة تدل على إدراكها لخطورة الموقف إذا ما حصل المسلمون على مأوى لهم يأمنون فيه، والحبشة نصرانية، وملكها عرف بالعدل، وهي قريبة من مكة، وكل ذلك يشكل خطراً على قريش في المستقبل.

لقد فتحت جبهة جديدة لقريش انهزمت فيها معنوياً وسياسياً وإعلامياً أمام ضربات المسلمين الموفقة، وخطواتهم المتزنة، وأساليبهم الرصينة من أجل تبليغ دعوة الله وإبلاغ رسالته.

لقد قاد المعركة السياسية والدعوية والعقدية جعفر بن أبي طالب، وكان صادق اللهجة، فصيح اللسان، قوي البيان، فتأثر النجاشي من قوله وخابت آمال قريش، وظهرت ملامح الإيمان في وجه النجاشي.

إن جعفراً رضي الله عنه قاوم حملة قريش الإعلامية المضللة بكل دقة وموضوعية وصدق ونقل الأخبار والحقائق من مصادرها، فأعلن رضي الله عنه ما سمعه من النبيّ ﷺ رداً على سؤال النجاشي في أمر عيسى عليه السلام دون مداهنة أو مواربة أو نفاق، لقد تلألأ وجه النجاشي بالإيمان الصادق دون بطارقته وقال للمهاجرين: «اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي (آمنون)، من سبكم غرم (كررها ثلاثاً)، ما أحب أن لي دبراً من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردَّ عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه»[2].

---

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، (1/ 337).

(2) انظر: ابن هشام (1/ 338)، والدبر: الجبل.

وقد امتلأت القلوب حقداً وغيظاً على الإسلام والمهاجرين الذين اطمأنوا في عبادتهم ونشر دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد آمن النجاشي ملك الأحباش وكسبت الدعوة أنصاراً جدداً وتوسعت دائرة المسلمين وكسبوا معارك سياسية إعلامية، ودعوية بتوفيق الله تعالى لهم[1].

لقد بقي المسلمون في الحبشة إلى أن استقر الإسلام في المدينة، فهاجر بعضهم إليها وبقي جعفر ومن معه[2] إلى فتح خيبر سنة 7 هـ.

وحاول رسول الله ﷺ أن يوسع مجال دعوته، فخرج إلى الطائف وعرض الإسلام على زعمائها إلا أنهم رفضوا ذلك، وبالغوا في السفه وسوء الأدب معه. فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقصد مكة ليواصل تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، ونصح الأمة، ولم يدخل مكة بدون تخطيط أو دراسة مستوعبة لكل الملابسات والظروف المحيطة به، بل درس الأمر وخطط للمرحلة القادمة، ورأى بثاقب بصره، وبعد نظره أن يتصل بمطعم بن عدي سيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف وطلب جواره، فاستجاب لطلب النبيّ ﷺ ودخل رسول الله ﷺ ومعه زيد ابن حارثة في حراسة بني نوفل الذين تحلقوا حوله بالسلاح، وهو يصلي في البيت الحرام وذهبوا في حراسته حتى دخل بيته.

لقد كان بنو نوفل مؤسسة قوية في المجتمع القرشي الذي له أعرافه وتقاليده المقدسة، فاستفاد الرسول ﷺ من تلك القوانين الموجودة، ووظفها بكل دقة وحنكة وسياسة لمصلحة الدعوة[3].

هكذا دخل ﷺ إلى مكة بعد رجوعه من الطائف، وبدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء والنصرة، حتى يبلغ كلام الله عز وجل. وكان رسول الله ﷺ يتحرك في المواسم التجارية ومواسم الحج التي تجتمع فيها القبائل وفق خطة دعوية واضحة المعالم، ومحددة الأهداف. وكان ﷺ يعرض نفسه على القبائل على أنه حامل دعوة من الله من أجل حمايته لكي يتمكن من تبليغ دعوة الله إلى الناس، ومن أجل نصرته فيما يسعى إليه من إقامة سلطان لتلك الدعوة، ويوفّر لها ولأتباعها الحماية والأمن، ومن ثم يمكنها من الانطلاق في الأرض داعية كل جنس ولون إلى الاستجابة لأمر الله.

---

(1) انظر: الوفود في العهد المكي، ص 123.

(2) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري (1/ 176).

(3) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن الكريم للدكتور التيجاني، ص 172 ـ 180.

ومن توفيق الله لدعوته أن المدينة المنورة كانت تعيش ظروفاً خاصة ترشحها لاحتضان دعوة الإسلام، وتجتمع فيها عناصر عديدة لا تجتمع في غيرها:

1 ـ منها التشاحن والتطاحن الموجود بين قبيلتي المدينة: الأوس والخزرج، وقد قامت بينهما الحروب الطاحنة كيوم بعاث وغيره، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم، ممن كان نظراؤهم في مكة والطائف وغيرهما حجر عثرة في سبيل الدعوة، ولم يبق إلا القيادات الشابة الجديدة المستعدة لقبول الحق، إضافة إلى عدم وجود قيادة بارزة معروفة يتواضع الجميع على التسليم لها، وكانوا بحاجة إلى من يأتلفون عليه، ويلتئم شملهم تحت ظله فكان يوم بعاث أمراً قدّمه الله تعالى لنبيه ﷺ، فقدم وقد قتل معظم سرواتهم وجُرحوا. فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام[1].

2 ـ ومنها مجاورتهم لليهود مما جعلهم على علم ـ ولو يسير ـ بأمر الرسالات السماوية، وخبر المرسلين السابقين، وهم ـ في مجتمعهم ـ يعايشون هذه القضية في حياتهم اليومية، وليسوا مثل قريش التي لا يساكنها أهل كتاب، وإنما غاية أمرها أن تسمع أخباراً متفرقة عن الرسالات والوحي الإلهي، دون أن تلح عليها هذه المسألة، أو تشغل تفكيرها باستمرار، فلما أراد الله إتمام أمره بنصر دينه، قيض ستة نفر من أهل المدينة للنبي ﷺ فالتقى بهم عند العقبة ـ عقبة منى ـ فعرض عليهم الإسلام، فاستبشروا وأسلموا، وعرفوا أنه النبيّ الذي توعدهم به اليهود، ورجعوا إلى المدينة، فأفشوا ذكر النبيّ ﷺ في بيوتها[2]. وكان هذا هو «بدء إسلام الأنصار» كما يسميه أهل السير[3].

لقد كانت المدينة المنورة تربة صالحة لانتشار الإسلام، فاليهود يهددون بنبيٍّ أظل زمانه يتبعونه ويقتلون الأوس والخزرج قتل عاد وإرم، والعرب أهل فراسة ونخوة أضاءت بعض شموع الحق بينهم، وكأنها إرهاصات للنصرة والنجدة. وقام الوفد بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

ولما جاء وقت العام التالي وافى الموسم ضعف العدد الأول ـ اثنا عشر رجلاً من المؤمنين، فبايعهم النبيّ ﷺ على ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصوه في معروف، وتعرف هذه البيعة، ببيعة العقبة

(1) البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب الأنصار (4/ 267) رقم 7777.
(2) انظر: ابن هشام (1/ 430).
(3) المصدر نفسه (1/ 428).

الأولى.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «إني لمن النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ» وقال: «بايعناه على ألا نشرك بالله شيئاً ولا نزني، ولا نسرق، ولانقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا ننتهب، ولا نعصي. فالجنة إن فعلنا ذلك، فإن غشينا[1] من ذلك شيئاً كان قضاء ذلك إلى الله»[2].

ولقد بعث الرسول ﷺ مع المبايعين مصعب بن عمير يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن، فكان يسمى في المدينة: المقرئ وكان يؤمهم في الصلاة[3].

ولقد اختاره الرسول ﷺ عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان رضي الله عنه بجانب حفظه لما نزل من القرآن، يملك من اللباقة، والهدوء وحسن الخلق والحكمة، قدراً كبيراً، فضلاً عن قوة إيمانه وشدة حماسته للدِّين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصاراً من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم[4].

لقد كانت دعوة مصعب رضي الله عنه في المدينة موفقة، وحققت أهدافها وشرع يشرح للناس تعاليم الدين الجديد، وتعاليم القرآن الكريم وتفسيره، وتقوية الروابط الأخوية بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية، وبين النبيّ ﷺ وصحبه بمكة المكرمة، لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدعوة، لقد كان الدور الإعلامي والتعليمي والتوجيهي الذي قام به مصعب في المدينة له أثر كبير في تهيئة الظروف للمرحلة التي بعدها. لقد فتحت المدينة بالقرآن، وبالدعوة إلى الله، وأصبح ولاء كثير من الأوس والخزرج لعقيدة الإسلام وشريعة الرحمن، وتشكل وفد من الأنصار لعقد البيعة الثانية مع النبيّ ﷺ، لتنتقل الدعوة إلى طور جديد ومرحلة أخرى.

لقد اهتم ﷺ ببناء الفرد المسلم الذي يحمل تكاليف الدعوة، ويضحي من أجلها، ولذلك نجد جعفراً يقوم بدور عظيم في تبليغ الدعوة، وأداء الأمانة في أرض الحبشة، ونجد مصعباً يفتح الله على يديه المدينة، ويدخل كثير من أهلها في دعوة الإسلام.

---

(1) ارتكبنا ذنباً.

(2) مسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها (3/ 1333) رقم 1709.

(3) انظر: سيرة ابن هشام (1/ 431).

(4) المصدر نفسه (1/ 435).

إن النبيّ ﷺ في طور المرحلة المكية قام بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة خير قيام، وكانت عنايةُ الله وحفظه له وتأييده ظاهر العيان.

ولقد سار على نهج رسول الله ﷺ في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة كثير من الدعاة على مر العصور، وكر الدهور ومكن الله لهم بين الناس حتى أدوا واجبهم في الدعوة إلى الله ومن أمثال ذلك: الإمام أحمد بن حنبل، وابن تيمية، والعز بن عبد السلام، ومحمد بن عبد الوهاب في الجزيرة، ومحمد بن علي السنوسي في ليبيا، وسعيد النورسي في العصر الحديث في تركيا، وعبد الحميد بن باديس في الجزائر، وحسن البنا في مصر... وغيرهم كثير، ومنهم من استشهد في سبيل دعوته إلا أنها انتشرت بعد مماته انتشار الضياء في الظلام، ولقد لاحظت في سيرة هؤلاء الأعلام في القديم والحديث حماية الله لهم، ورعايته وحفظه، وتثبيته لهم في المحن والشدائد، وتهيئة الله قلوب الناس لاستماع دعوتهم ونصحهم، وكانوا - رحمهم الله - رجالاً للعقيدة عاشوا من أجل هذا الدين وماتوا في سبيله.